

التطور الإسلامى للنظرية المعمارية المدخل لإعادة التوازن العمرانى للمدينة العربية

د. عبد الباقي إبراهيم

رئيس مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية - القاهرة

لاتزال إشكاليات التحديث والتأصيل في التجارب المعمارية المعاصرة في البلدان العربية وتجليات الإغتراب في العمران العربى المعاصر محلا للجدل والنقاش مع كثير من المفكرين والمعماريين . وكثيرا ما طرحت هذه الإشكاليات في العديد من المؤتمرات والندوات التي حاولت أن تسعى إلى لقاء الضوء على المؤثرات الثقافية الواردة من الغرب على موروثنا الحضارى والعمرانى . والعمارة كغيرها من الفنون تعرضت إلى موجات متلاحقة من الغزو الثقافى الغربى منذ العصر العثمانى وخلال عصور الإحتلال وما واكبه من نفوذ أجنبى بدأت بوادره تظهر في عصر إسماعيل باشا في مصر حيث حاول ان يجعل من القاهرة قطعة من أوروبا بدعوته للمعماريين الفرنسيين والإيطاليين لبناء وتعمير إمتداد القاهرة غرب المدينة التاريخية فشقت الشوارع العريضة على النمط الباريسى فأقيمت العديد من العمائر التي تحمل طراز عصر النهضة والباروك ومعها تغيرت الأزياء الرسمية وشاع الزى الغربى في الأوساط الراقية كما أقيمت الأوبرا لتقدم الأنغام السيمفونية والأوبرالية . كما نفذت الثقافة الأوربية إلى الآداب والفنون بكافة انواعها .. وهكذا تغيرت ملامح الإنسان كما تغيرت ملامح العمران .. وانقطع تيار التواصل الحضارى مع الماضى الزاخر بإبداعاته الفكرية والأدبية والفنية والمعمارية . ودخلت مصر في حقبة جديدة من الحضارة المعاصرة عززها الإرتباط المعرفى بارسال البعثات من مختلف التخصصات إلى أوروبا وأفرزت بالتالى العديد من قادة الفكر والأدب والعمارة الذين تأثروا بالحضارة الأوربية ونقلوا ملامحها إلى مصر الأمر الذى أدى بقليل من المفكرين والأدباء والمعماريين إلى الدعوة للبحث عن الذات والعودة إلى التراث في جميع المجالات ومنها العمارة فبدىء بالنقل الحرفى من العمارة الفرعونية في بعض المبانى العامة والنقل الحرفى من العمارة الإسلامية في غيرها مع التبسيط والتنميط .

من هنا بدأ الحوار الساخن بين المؤيدين للتفاعل مع العمارة العالمية والمؤيدين للتعامل مع العمارة المحلية واختلطت المفاهيم كما اختلطت المدارس الفكرية الأمر الذى انعكس بالتالى على المناهج المعمارية ومن ثم على المنتج المعمارى الذى حول المدينة إلى كرنفال من الأشكال والألوان والطرز المعمارية . وفقدت المدينة شخصيتها العمرانية . وانتقلت العدوى بالتالى إلى المدن في الدول العربية ، وظهرت هذه العدوى في عمارة الخمسينات والستينات في الكويت والمملكة العربية السعودية وسوريا والعراق وغيرهما من الدول العربية . إلى أن بدأت أموال النفط تجذب المعماريين من الغرب إلى المنطقة العربية مرة اخرى فأقيمت العمائر التي تعكس في معظمها العمارة الغربية الحديثة وأصبحت المنطقة العربية مثل السيرك يحاول المعماريون من الغرب ان يعرضوا فيه لعباتهم المختلفة فاختل التوازن العمرانى للمدينة العربية مرة اخرى وساعد على ذلك قناعة الكثير من اصحاب المال والعديد من المعماريين العرب بهذا التيار الجارف بحجة أن العالم قد اصبح قرية صغيرة لا مكان فيها للأصالة في عصر التكنولوجيا المتقدمة الواردة من الغرب . وأمام هذا التيار الجارف قام قلة من المعماريين العرب في بداية الستينات إلى الدعوة لتأصيل القيم الحضارية في بناء المدن العربية المعاصرة وظهر منهم حسن فتحى وعبد الباقي إبراهيم في مصر ومحمد مكية ورفعت الجادرجى في العراق وسباشير في الكويت وأخذوا على عاتقهم حملة التنوير الثقافى المعمارى سواء بالكتابة أو النشر أو بالإنتاج المعمارى الذى يربط الأصالة بالمعاصرة ..

وامتدت هذه الحملة تنتشر في البلاد العربية وتصل إلى قناعة متخذى القرار فيها من أصحاب رؤوس الأموال والمعماريين وبدأت صحوة جديدة تحاول ان تعيد إلى المدينة العربية وجهها الحضارى الذى فقدته على مدى قرن من الزمان .

ومع هذه الصحوة الجديدة التى ظهرت آثارها في الثمانينات والتسعينات تسللت دعوات غربية تطرح من جديد النظريات الغربية المعاصرة حيث أن الفكر المعمارى في الغرب هو دائما في حالة تفاعل مستمر مع الإنجازات التكنولوجية المتلاحقة التى تصدر بعد ذلك إلى العالم العربى لتؤثر مرة اخرى على المنتج المعمارى الأمر الذى دعى بعض المعماريين وكان على رأسهم حسن فتحى للدعوة إلى ضرورة البحث عن تكنولوجيا للبناء متوافقة مع البيئة المحلية والإمكانات البشرية . وظلت هذه الدعوة حبيس الأدراج ولم تظهر آثارها بعد على العمارة العربية المعاصرة .

ومع كل هذه التقلبات الفكرية كانت العمارة الإسلامية هى المنهل الرئيسى لتأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة العربية وبدأ التعامل مع التراث المعمارى الإسلامى بغية الحصول على صيغة معمارية ملائمة تتواءم مع المنجزات الحضارية والتكنولوجية المعاصرة . وانقسم المنهج في هذه الإتجاه إلى ثلاث إتجاهات الأول وجد أن أنماط العمارة الإسلامية التى ثبتت قيمها ونسبها الجمالية وابداعاتها المعمارية يمكن إعادة صياغتها نصا وروحا في العمارة المعاصرة . وقد ظهر هذا الإتجاه جليا في مجموعة كبيرة من المساجد التى انشأت أخيرا في مدن المملكة العربية وتقبلها الرأى العام بالترحاب مع مافيهها من تناقضات انشائية لاتتمشى مع العصر - أما التوجه الثانى فظهر في أعمال العديد من المعماريين الذين دأبو على تحليل المفردات المعمارية التراثية بهدف الإقتباس منها في صياغة العمران المعاصر مع استثمار المنجزات التكنولوجية الحديثة في البناء .

أما التوجه الثالث فيرى انه لايجب اعتبار العمارة الإسلامية هى المتمثلة فقط فيما انتج من معمار في فترة تاريخية محددة وهى العصور الإسلامية وفى حيز مكاني واحد هو المنطقة الممتدة من شرق العالم الإسلامى إلى غربه . الأمر الذى يخرج المفهوم الإسلامى عن مضمونه الذى يعتبر في الإسلام حضارة لايجدها زمان أو مكان . وأن بها مضامين معمارية ثابتة لاتتغير بتغير المكان و الزمان وان كان فيها الشكل هو العامل المتغير بتغير المكان والزمان . ويحاول هذا التوجه إعادة المنهج إلى البحث عن العمارة في الإسلام وليس البحث عن العمارة الإسلامية بمفهومها التقليدى المتعارف عليه ، من هذا المنطلق بدأ البحث في الأصول والآليات التنظيمية التى كانت سائدة في العصور الإسلامية والتى أثرت على البناء المعمارى في هذه العصور كما بدأ البحث في مراجعة آيات القرآن الكريم والسنة المحمدية وكتب السلف الصالح بهدف استخلاص القيم التى تبنى الإنسان وأخذها بالقياس في بناء العمران مع الأخذ بأساليب البناء الحديثة والمتطلبات المعاصرة .

من هنا يجىء المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية لمواجهة النظريات المعمارية التى تتدفق تباعا من الغرب معتمدة على تراثه العلمى وانجازته التقنى الذى يقف أمامه الفكر العربى والإسلامى جامدا ومنبها دون ان يقدم البديل . والبديل هنا لاتقع مسؤوليته على المعماريين فقط بقدر ماتقع على المفكرين والأدباء والعلماء والمتقنين والفنانين الذين يعبرون عن وجدان المجتمع الإسلامى العربى . ويهدف هذا البديل إلى تحقيق الأهداف التالية :

١. البحث عن الذات كبديل للتبعية الثقافية والفكرية في العمارة والعمران .
٢. إعادة اكتشاف التراث الثقافى والعلمى وانجازته التقنى الذى يقف أمامه الفكر العربى والإسلامى .
٣. تأكيد المرجعية الفكرية الإسلامية وحياتها في العمران المعاصر .
٤. مواجهة الغزو الثقافى الغربى بإعادة الاعتبار للغة العربية .
٥. وضع النظرية الإسلامية في العمارة وتقديمها للعالم نظرية عالمية .
٦. اطلاق الحرية في التعبير والإبداع في اطار القيم الإسلامية ومن خلال الموروثات المعمارية .

٧. التأكيد على ان العمارة في الإسلام هي منتج اجتماعي أكثر منه انجاز فردي .
ولتحقيق هذه الأهداف لتقديم البديل الفكري للعمارة الإسلامية العربية لابد من تحديد الحقائق الآتية :
١. التقدم التكنولوجي الذي أفرزه الغرب في فترة الضعف التي انتابت العالم الإسلامي خلال مراحل الاستعمار وضعف القدرة على مسايرته حتى أصبحت المراجع الغربية هي الموجه للفكر المعماري المحلي .
 ٢. الموروث المعماري في فترات العصور الإسلامية كان بعيدا عن الارتباط العضوي بين الإنسان والعمران الأمر الذي ظهر في حركة النمو العضوي للمدن وفي التجانس الشكلي للعمارة .
 ٣. اختلاط النظرية الغربية بالمنظور الإسلامي للنظرية المعمارية أثار الكثير من التناقضات الفكرية بدخول الإسلام كدين عنصرا أساسيا في النظرية .
 ٤. الغرب يقدم النظريات المعمارية السابقة ويغزو بها الفكر المعماري الإسلامي في الوقت الذي لم يقدم فيه المعماري المسلم النظرية البديلة فأصبح تابعا ومتلقيا قبل أن يكون مبتكرا أو مفكرا .
 ٥. النظرية الغربية لا تتضمن الجانب العقائدي أو الديني في الوقت الذي يدخل فيه الإسلام عنصرا هاما في بلورة الفكر المعماري الإسلامي .
 ٦. الإنسان هو العنصر الغائب في النظرية المعمارية الغربية التي تعتمد على الإبداع الفردي دون مشاركة الجماعة أو المجتمع بكل مستوياته في الإنجاز العلمي للعمارة .
 ٧. الجدل الفكري لايزال قائما بالنسبة لتعريف العمارة بالإسلامية وهل يصح أن يطلق عليها عمارة المسلمين أو انها هذا الجدل بتعريف العمارة في الإسلام إذا كان هو السند الحضاري للمجتمع .
من هذه الحقائق الثابتة تنطلق النظرية المعمارية من الثوابت التالية :
- ١- الإسلام لا يحده زمان أو مكان ويهدف إلى ماينفع الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية ويدعو إلى التقدم العلمي وأعمال الفكر والتمتع في أسرار الكون بما يحدد المضامين الثابتة في العمران الإسلامي ، أما الإبداع في الشكل والتشكيل يتغير بتغير الزمان ويرتبط بالجزور الثقافية للمكان وتبقى المفاهيم الإسلامية هي الدافعة لحركة المجتمع .
 - ٢- الإسلام حضارة كل العصور يبني الإنسان كما يبني العمران وفيه كل مقومات النظرية العمرانية التي لم يستكمل إكتشافها بعد وهو المرجعية الثقافية البديلة للمرجعية الغربية المنهج والفكر والعطاء التي لا تزال تواجه الفكر العربي .
 - ٣- الإبداعات المعمارية في حركة مستمرة وقبولها يرتبط بفاعليتها من الجوانب الثقافية والبيئية والوظيفية والإقتصادية والإجتماعية التي تمثل مقومات النظرية الإسلامية في العمارة . من هنا يظهر القوام الإجتماعي أو الجماعي للنظرية التي يتمثل في كون العمارة من الداخل ملكا للفرد ومن الخارج ملكا للمجتمع الذي يعيش بين جوانبها . الأمر الذي يثير الجدل بين الفردية في الإبداع والجماعية في التلقى أو اشكالية العمارة بين الفردية والجماعية بما يمثله منهج الوسطية الأمر الذي ينعكس بدوره على عملية بناء الفكر المعماري والعملية التعليمية .
 - ٤- استمرار المد الحضاري بين الماضي والحاضر والمستقبل يصعب إيقافه كليا أو جزئيا ويعتمد في ذلك على قوة الموروث الثقافي للمجتمع المرتبط دائما بالموروث العمراني فالحفاظ على الأول وتفعيله يرتبط بالحفاظ على الثاني وتطويره في بناء الشخصية المحلية للعمران وان تسابقها بعض المؤثرات الخارجية التي لا تتعارض مع البيئة الإجتماعية أو القيم الإسلامية .
- من خلال الحقائق والأهداف والمنطقات السابقة يمكن عرض جوانب النظرية العمرانية في الإسلام من واقع التوجيهات الإسلامية في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ابتداء من وحدة الجوار في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة أو من التكافل الإسلامي في مشروعات الإسكان أو من تحرير المضامين التصميمية في البناء سواء في المسجد أو في السكن أو غيرها من المباني - لقد

نبعت نظرية وحدة الجوار في المدينة الإسلامية من الحديث النبوي الشريف " إلا من أربعين دارا جار " وأشار في ذلك إلى الجهات الأربعة ، من هنا امكن استخلاص شكل وحدة الجوار بأبعادها الثابتة وبكثافتها المختلفة لتصبح بمثابة الخلية في بناء جسم المدينة الإسلامية في مراحل نموها المستمرة بصورة متكاملة . وكان ذلك مدخلا لاستنباط النظرية الإسلامية في التنمية العمرانية شاملة مرحلية الإستيطان البشرى المتكامل مع التكافل في مشروعات الإسكان ومراجعة اسلوب تقسيم الأراضي بما يسمح لهذا التكافل واضفاء الطابع العمرانى المتجانس . كما نبعت نظرية التكافل في مشروعات الإسكان وعدم الفصل بين الطبقات من خلال الآية الكريمة { أهم يقسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون } . وفى ذلك دعوة لعدم التفرقة بين الطبقات في التجمعات السكنية وتأكيد المزج الإجتماعى في مناطق الإسكان وتطبيق مبدأ التكافل بين المسلمين حتى يصبح إيواء من لا مأوى لهم جزءا لا يتجزأ في عملية التنمية العمرانية المتكاملة يتحمله الأغنياء عن الفقراء كمصرف للزكاة . وتنتقل النظرية بعد ذلك لتتضمن القواعد الفقهية التى تحكم تصميم المسجد في كل زمان ومكان مع إختلاف القواعد التقنية والجذور الثقافية التى تحكم الشكل في المكان فالقواعد التصميمية الثابتة تحث على عدم قطع صفوف المصلين بكثرة الأعمدة وتوفير رؤية الخطيب واعطاء الصفوف الأولى الأفضلية وكما جاء في الحديث النبوي الشريف " لو يعلمون مافى الصف المقدم لاستهموا " . كما ان تصميم المسجد ليس للتفاخر والتباهى - في الحديث النبوي الشريف " لاتقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد " وقال أنس " يتباهون بها ثم لايعمرونها إلا قليلا " والمسجد ليس مكان للزخرف كما في الحديث الشريف " إذا زخرفتكم مساجدكم وحليتكم مصاحفكم فالدمار لكم " يبقى منهج الوسطية هو المتحكم في النظرية . ويصبح مبنى المسجد متكاملا مع النسيج العمرانى للمدينة وليس على أطرافه أو خارجه كما هو متكامل مع النسيج الإجتماعى الذى يلتف حول المسجد كمركز للنشاط الإجتماعى والثقافى والدينى في قلب وحدة الجوار . وكذا تبدأ المحاولات للبحث عن جذور النظرية التخطيطية والمعمارية من نصوص القرآن الكريم والسنة المحمدية ويستمر البحث بعد ذلك في أقوال السلف الصالح وفى النظريات العلمية لعلماء المسلمين كمرجعية ثقافية وفكرية تحرك النظرية الإسلامية وتقدمها للعالم كدليل على قدرة المعمارى المسلم على استنباط النظريات كما يفعل أقرانه في دول الغرب بنفس المنهج والأسلوب مع اختلاف المحتوى والمضمون . الأمر الذى يمثل الإتجاه العلمى لمواجهة اشكاليات التحديث والتأصيل وتجليات الاغتراب في العمران العربى . وحتى تعود للأمة الإسلامية والعربية مقوماتها الحضارية التى فقدت معظم ملامحها الثقافية والعمرانية خلال فترات الغزوات العسكرية وما تبعها من غزوات ثقافية واقتصادية . وفى ذلك دعوة إلى تأصيل القيم الحضارية في بناء العمران الجديد . والله من وراء القصد .